

التفكير الأدبي عند محمود درويش

أ. عائشة حيدوسي

Youssef_hidoussi@yahoo.com

كلية الآداب واللغات

جامعة الحاج لخضر، باتنة

ملخص:

يهدف هذا العمل إلى محاولة التعرف على محمود درويش من زاوية معينة هي: تفكيره الأدبي. فيسلط الضوء على بعض الإشكاليات الفكرية التي تناولها الشاعر خلال مسيرته الشعرية أو رحلته إلى المجهول كما كان يفضل تسميتها. سيتم التركيز خاصة على إشكاليات تعتبر ركائز هامة في مواقف الشاعر وفي شعره وفكره. من أهمها: وظيفة الشعر ونزعات الشاعر وقلقه الوجودي وإيديولوجية الخطاب الشعري لديه، وأيضاً بعض استنتاجاته العميقة حول الشعر العربي والغربي.

ومما توصلت إليه هذه الدراسة أن أعمال محمود درويش لم تأت عشوائية، بل خضعت لتقاليد ومراسيم أرساها الشاعر لنفسه بنفسه تطبيقاً لتعاقد ضميري افترضه درويش معبرا عن التزامه بقضيته وإيديولوجيته وتفكيره الأدبي السليم الممنهج الذي ارتقى به من قمة إلى أخرى.

Abstract:

This work tries to identify Mahmoud Darwish through a certain angle: his literary thinking. It highlights some of the intellectual dilemmas applied by the poet through his journey into the unknown as he preferred to call it. A particular focus will be on the problematic of the positions of the poet, his poetry and thinking. Among these positions: the function of the poet, his tendencies and existential concern, and the ideology of poetic discourse, and also handling some profound conclusions about Arabic and western poetry.

Some of the conclusions reached by this study are: the works of Mahmoud Darwish did not come randomly, but subject to traditions and decrees laid down by the poet himself and his own application of his hypothetical conscience contract. Darwish expressed his commitment to his cause and ideology and his proper systematic literary thinking which elevated him from top to top.

مقدمة:

إن الحديث عن محمود درويش أمر شيق شائك، رحب شاسع يمكن من خلال هذه السطور الإمساك ببعض مفاتيحه والتطفل على بعض أسرارهِ. لكن لن ندعي أن عملاً علمياً واحداً أو حتى عدة أعمال وأطروحات ستقي الشاعر حقهِ. سنحاول استنطاق شعر محمود درويش لنعرف ماذا أراد أن يقول لنا بواسطته، وكيف كان يقول ما يقول؟

هناك حقيقة مؤكدة تقول إن الأحكام تتباين من شخص إلى آخر، كما أنها تتباين لدى الفرد الواحد خلال أوقات مختلفة. هذه الحقيقة تجسدت في محمود درويش نفسه الذي كان دائم التنقيح لأعماله، فمقاييسه وأحكامه على نفسه أثناء مراقبته الشعرية، ثم صباه، لم تكن الأحكام نفسها في شيخوخته الناضجة المصقولة بالمران والتجارب. فحاسة النقد الذاتية التي تقبع في أعماق كل شاعر تعرضت هي أيضاً للتغيير عند محمود درويش حسب المراحل الزمنية التي عاشها. وهذا أمر شائع مستحب لدى النقاد والكتاب والشعراء فهم يعترفون بذلك، لا يخرجون من الاعتراف بتنقيح كتاباتهم مع كل طبعة وتعديل آرائهم صوب العمق.

مشكلة الدراسة:

يطرح هذا العمل عرضاً يحدد رؤية محمود درويش لبعض القضايا الأدبية والنقدية والفنية الهامة، وتلمس أهم الثوابت لديه، تلك الثوابت التي يجب أن تتوفر في كل شاعر - ناقد - مر بتجربة رائعة كتجربة محمود درويش، تجربة صقلت فكره وغذته وأوضحت رؤيته وموقفه من أهم قضايا الأدب - شعره ونثره - ونقده في بعض الأحيان. ستركز الخطوة الأولى على مراقبة درويش أثناء عملية إبداعه وكيف تتابعت طقوسها لديه منذ اللحظة الموسيقية وصولاً إلى بناء القصيدة بناءً هندسياً. ثم تلمس آثاره في تحديد مفهومه للشعر، ورأيه في أهمية ارتباط الفن والأدب بالمجتمع. فكانت وقفة مع الشعر والإيدلوجية والقصيدة السياسية وجمالية الشعر. ومن هنا يمكن طرح الأسئلة الآتية:

- ما هو رأي محمود درويش في التطور الشعري؟
- كيف أثبت درويش أنه شاعر لا تظهر سيرته الشعرية إلا فيما يجود به إلهامه؟
- كيف أثبت درويش أنه لم يتخل عن ارتباطه بقضيته؟

الهدف من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على شاعر لا أحد ينكر أنه استطاع انتزاع إعجاب كل من قرأه وسمعه، مهما كان مستوى ومشرب هذا القارئ أو السامع. كما تهدف إلى إبراز الإضافات الهامة التي أدخلها محمود درويش على الشعر العربي الحديث وإيقاعاته وبنائه. والهدف الأسمى هو التركيز على حرصه الدائم على خدمة مجتمعه وقضيته، لذا شرف بأن يكون رمزا صادقا لهذا المجتمع وتلك القضية.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في إثبات تجدد محمود درويش الدائم، وطرحه بذرة عمله الجديد ضمن خواتيم أواخر كل عمل. وتعمل على التذكير ببعض آرائه القيمة في تطور الشعر العربي؛ آراء أبرزت ثقافته وإطلاعه على الآداب الأجنبية المختلفة، كما أبرزت تقاطع أفكاره وأعظم الكتاب العرب والمحدثين مثل ابن رشيق وإحسان عباس.

منهجية الدراسة:

أتبعت هذه الدراسة الأسلوب الوصفي التحليلي منهجا، بعد الرجوع إلى أمهات الكتب التي اهتمت بهذا النوع من الدراسة وإلى البحوث المتخصصة والمواضيع التي لها صلة مباشرة أو غير مباشرة به في الشبكة العنكبوتية.

أولا، عملية الإبداع/طقوسها:

إن الإبداع الشعري أمر شاق تختلف درجاته عند الشعراء باختلاف صدقهم. وقد كان ابن رشيق ذكيا دقيقا في وصف هذه المعاناة حيث يقول: "وقيل عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر، ويقال إن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل أهول ما يكون على العالم، وأتعب أصحابه قلبا من عرفه حق معرفته، وأهل صناعة الشعر أبصر به من العلماء بآلته".¹ نعم صدق ابن رشيق فقد أتعب الشعر

¹ - أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج 1، تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، (بيروت: المكتبة العصرية، 2001)، ص. 105.

محمود درويش وقلبه، وعانى كثيرا ليقدم شعرا لم يكن راضيا عنه في معظم الأوقات لشدة حرصه على الأفضل.

يعترف درويش في حوار مع عبده وازن بمعاناته ومحاولته إخفاء هذه المعاناة فهو القائل: "أزمتي لا تظهر في قصيدتي، بل في ما قبل القصيدة. أزمتي هي مع ماضي القصيدة. في القصيدة يجب ألا تظهر معاناتك كشاعر، ولا عذابك الذي يسبقها. القارئ يرى المولود ولا يعرف ما هو المخاض. يرى الشيء في هيئته الناضجة. أما ما وراء ذلك فلا".¹ يشعر محمود درويش أن مكابدة الروح وإيصال القصيدة إلى الشكل الذي يجده القارئ: أزمة. يكرر هذه التسمية لهذه المكابدة والمعاناة كثيرا فهو القائل أيضا: "هناك انتباه الشاعر إلى عيوبه الشعرية انتباه إلى مأزقه".² يعترف محمود درويش بجسامة الدور المنوط بالشاعر—الذي هو في أزمة شعرية دائمة—كما لا ينكر مقدرته وذكاءه في التعامل مع هذه المأزق وحسن التخلص منها .

وهذا بدوره يستدعي الحديث عن قضية هامة هي: قضية الوعي في التجربة الشعرية، ولدى محمود درويش خاصة. فالوعي الكتابي: "هو الوعي بالذات الذي يتجلى في الشعر من خلال الوعي بالوظيفة الشعرية poetic function، أي وعي الشاعر بالرسالة التي يقوم عليها عمله ومن ثم تركيزه عليها، أي وعيه بهيمنة تلك الوظيفة على الوظائف الأخرى في عمله"،³ فقد سيطرت على محمود درويش المهمة الرئيسة التي جند لها قلبه وإحساسه وقلمه وعقله الباطن، فكان يكتب وهو على وعي تام بما يريد مما جعل كتاباته ترقى إلى المستوى الذي أراده لها. فهو القائل: "كل تخطيط لقصيدة هو عمل واع"،⁴ أي أنه طوال معاناته وعمله وأزمته كان على وعي تام بهدفه وإلى أين يريد أن يصل بقارئه ومعه. ومسألة الوعي عند محمود درويش لا يجب النظر إليها من منظور بعض الاتجاهات الأوروبية التي

¹ - عبده وازن، حوار: "محمود درويش: ولدت على دفعات" مجلة الكرمل. العدد 86 (شتاء 2006) ص. 24 .

² - المرجع نفسه، ص. 9 .

³ - حسن البنا عز الدين، الشعرية والثقافة. مفهوم الوعي الكتابي وملاحمه في الشعر العربي القديم، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2003)، ص. 17 .

⁴ - وازن، المرجع السابق، ص. 20 .

اعتبرته نقيضا للعقل الباطن، إنما لننظر إليها من زاوية صدق الإحساس وخلوه من التقليد والمحاكاة بل تجذير أصول جديدة في الشعر العربي المعاصر.

إن الحديث عن الكتابة الشعرية وطقوسها أمر ليس بالهين، لأن الأمر خاص جدا لذا نستدرج محمود درويش نفسه ليقودنا بنفسه إلى بعض خصوصياته فهو يقول " القصيدة تبدأ وفق طرق مختلفة ترتبط بالشعراء أنفسهم تبدأ القصيدة عندي من الحدس، الحدس يأخذ شكل الصورة، أي يصير الغامض والحلمي مجموعة صور. لكن هذا حتى الآن لا يفتح مجرى القصيدة، يجب أن تتحول الصور إلى إيقاعات. وعندما تحمل الصور بإيقاعاتها أحس أن القصيدة بدأت تحفر مجرى لها داخل أجناس أدبية غير محددة.¹ يذكرنا درويش بصعوبة الوضع أنه يرى أن "القصيدة تحفر مجراها في كتابات لا تنتهي. وصعوبة تحقق القصيدة هي كيف تكشف عن نفسها، وتتجز هويتها الشعرية داخل كل هذه الأجناس والنصوص. إذا الإيقاع هو الذي يقودني إلى الكتابة وإذا لم يكن هناك إيقاع، ومهما كانت عندي أفكار أو حدوس أو صور، فهي ما لم تتحول ذبذبات موسيقية لا أستطيع أن أكتب" فنقطة الانطلاق التي كشف عنها درويش هي: اللحظة الموسيقية وهي نقطة في غاية الأهمية.

ما زال محمود درويش يبتنا أسرار وأراءه وطقوسه في لحظة مميزة من لحظات حوار الرائع مع عبده وازن فيقول مذكرا " إن مفتاحي كما قلت هو الإيقاع. هذا بالنسبة إلى الحافز الشعري. ولكن لدي إصرار على أن أبنّي القصيدة بناء هندسيا، وهذا ينطبق على القصائد الطويلة والقصيرة في آن واحد. وأعتقد أن قصيدة بلا بنية قد تهددها النزعة الهلامية. أحب أن يكون للقصيدة قوام. وهذا ليس قانونا أحذوه بل هو خيار شعري.² خيار لا غبار عليه لا يستثني أمورا أخرى لا تقل أهمية لذا يحرص درويش دوما على ربط الكتابة بالفكر. كما يؤكد أن الشاعر ليس أتيا من اللغة فقط، بل من التاريخ، والمعرفة، والواقع. "والذات الكاتبة لدى الشاعر ليست ذات واحدة إنها مجموعة ذوات. إذا هناك فكر ما يقود عمل القصيدة. أحيانا تتمرد الكتابة على الفكرة التي تقودها، وتصبح الكتابة هي التي تقود الفكرة. وهنا يجوز لنا أن نقول: إن الغد يأتي إلى الماضي، وليس العكس.³ آراء صائبة

¹ - المرجع نفسه، ص ص. 19-20.

² - المرجع نفسه، ص. 20.

³ - المرجع نفسه،

وتصريحات مميزة ليست بحاجة إلى أي تعليق فهي معبرة شافية وافية تختزل مسيرة الشاعر وثقافته وخطواته.

ثانياً، مفهوم الشعر عند محمود درويش:

ليس جديداً أن نقول إن محمود درويش الشاعر لعب دوراً هاماً في تطور الشعر العربي، وأنه شاعر ترك بصمات عميقة في تحديث الشعر العربي وترصيعه بالرمزية، وليس جديداً أيضاً أن نرى تماثل رأي درويش والمنظرين حول الشعر - قدامئهم ومحدثيهم - يقول ابن رشيق في الشاعر وسبب تسميته بهذا الاسم: "وإنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استطراف لفظ وابتداعه أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر - كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن.¹" فالشاعر كما رآه ابن رشيق يتمتع بحساسية مفرطة ومهارات خلاقة تجعله جديراً بأن يكون شاعراً.

يقول محمود درويش مقترباً من هذا المعنى مؤكداً بحثه الدؤوب عن الجديد حتى في لغته الشعرية فتراه يقول: "أشعر بأنني في حاجة إلى لغة شعرية جديدة تحقق الشعرية في القصيدة بشكل يجعلها أكثر شعرية إذا أمكن.²" كما كرر كثيراً قوله: "إنني مسكون بهاجس هو عدم كتابتي حتى الآن ما أريد أن أكتبه ... إن رحلتي هي إلى المجهول الشعري بحثاً عن قصيدة ذات قدرة على أن تخترق زمنها التاريخي، وتحقق شرط حياتها في زمن آخر.³" هذا هو الشاعر الحق المتمرد على المدرك الباحث دوماً عن الأفضل والأطول بقاءً.

كما أكد أن التنظير حول الشعر والكتابة عنه لا تقنعه "إلا إذا تحققت شعرياً أو في الكتابة الشعرية،"⁴ تلك الكتابة التي كانت مصدر قلقه وخوفه فقد كان مسكوناً "بقلق ربما كان وجودياً. هل أستطيع أن أكتب من جديد، أم لا؟ دائماً عندما أصدر

¹ - القيرواني، المرجع السابق، ص. 104 .

² - وازن، المرجع السابق، ص. 12.

³ - المرجع نفسه، ص. 13.

⁴ - المرجع نفسه،

كتاباً أشعر بأنه الكتاب الأخير.¹ وهذا كله لم يكن إلا هواجس عباقرة ومثاليين. لقد كان درويش شاعراً متجدداً، يغرس في كل إصدار جديد بذرة تنمو وتبدو جلية في الإصدار الذي يليه. كان متجدداً تجدد قوة شعبه، شعب الجبارين.

تقاطع موقفاً إحسان عباس ومحمود درويش حول موقفيهما من الشعر: "الشعر في نظر إحسان عباس هو التحام الفكر والإحساس، لا طنين الألفاظ الخلابة، ولا فورات العاطفة المتقدة، ولا غابة الألفاظ المتشابكة، ولا التجاوز والضرورة، ولا الرفض المطلق، وإنما هو حضور الثقافة والفكر لدى الشاعر الموهوب الخلاق"² عند الإبداع وشحن الوعي الثقافي للشاعر. تلنقي وجهات نظر ناقد معاصر متمكن كإحسان عباس وناقد شاعر أو شاعر ناقد هو محمود درويش الذي يرى أن الشعر سر والسر هو ما يجعل الشعر مستمراً. ليس هناك من اكتشاف شعري نهائي، وكل كتابة هي محاولة إجراء تعديل على مفهوم عام للشعر. ولكن كل كتابة جديدة تملك إضافات ما، هي عبارة عن إعادة التعريف بالشعر.³ التطور يضيف إلى الشعر مزايا ولا يلغيه أو يلغي الفن فيه، بل يجعل الشعر مناسباً لمواجهة حساسية كل العصور، واختلاف المتلقين.

ثالثاً، الشعر والمجتمع:

تحاول الفلسفة جاهدة الربط بين الفن والمجتمع، فتقول إن الفن باعتباره أحد الأنشطة الاجتماعية التي تزخر بها الحياة، فعليه أن يعمل لصالح المجتمع وأن يكون اللسان الناطق بما ينبض به هذا المجتمع. أما إذا "أخذنا برأي علماء الاجتماع في أن هناك ضميراً جمعياً يهيمن على العلاقة بين ضمير الشخص وضمير الغير أو بقول علماء النفس بأن "الشعور الجماعي" أو "نحن" هو مجرد نتيجة للصلة الداخلية بين شعور الشخص مع شعور الغير"⁴ فحركية التفاعل بين الأنا والغير لا تتوقف، وتكون أكثر رهافة وحساسية لدى الشعراء، لذا نتفهم درويش ونعذره فقد كانت علاقته

¹ - المرجع نفسه،

² - إبراهيم السعافين وإحسان عباس، ناقد بلا ضفاف، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002)، ص. 221.

³ - وازن، المرجع السابق، ص. 14.

⁴ - رجاء عيد، فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1986) ص. 78.

الوطيدة بقضايا وطنه السياسية والاجتماعية من أبرز أسباب وجود شعره وارتقائه فتحول إلى قضية شعرية وذلك لأنه آمن إيماناً عميقاً بالدور العظيم المنوط بالشعر والشاعر، لقد أحس بوجود تعاقب ضميري بين الشاعر ومجتمعه يدعم تواصل "حيوية نبض العلاقة بينهما وتفاعلها. وقومه إذ أعطوه هذه الثقة الكاملة فإنه لا يكذب أهله. وهو إذ يفعل ذلك يقوم بعملية التحام أو اقتحام بين عقيدته وعقيدة مجتمعه فيما يمكن أن نسميه الحبل المشدود واصلاً فيه طرفه بذاته وطرفه الآخر بذوات الآخرين بحيث يتم الموقف من خلال ممارسته الشخصية عن طريق الالتزام وليس عن طريق الإلزام،¹ التزام احترامه درويش فميزه وميز تجربته الشعرية لشدة التصاقها بمجتمعه وحساسيتها المفرطة لقضاياها، لذا وضع درويش هذا التعاقب الضميري نصب عينيه دائماً، وتحمل تداعياته كلها.

فقد آمن محمود درويش منذ البداية بالدور الهام الذي يلعبه الشعر والشاعر في تحقيق آمال شعبه والتعبير عن آماله وآلامه. ويبدو أن الكون الشعري لمحمود درويش قد تمحور حول بؤرة رئيسة هامة ووحيدة هي: فلسطين/ الوطن، لذا عاش من أجل هذا الحب يحمله أين يذهب يتحدث بلسانه، يدافع عنه، يحن إليه في المنافي ويوظف الشعر لصالحه مؤمناً إيماناً صادقاً "أن قدرة الشعر الفنية وتمكن الشاعر من أدائه يتيح له إذا اكتمل وعيه بتجربته وأحسن تحسس أبعادها أن يجعل الأداء اللغوي قادراً على أن يستولد دلالات ويصطنع إيماءات بواسطة الإمكانيات الدلالية التي تجعل المعنى يخلق حوالية معاني أو المضمون يستولد مضمونات"² يكتشفها القارئ المحب لشعر درويش فيتبين مشاعره المستترة خلف جسد الكلمات ويدرك أن "الأداء الشعري الرامز عند "محمود درويش" يمتاز إضافة إلى جانبه الأدائي المؤمن بقضية الوطن بواسطة الحب يمتاز بهذه النكهة الفكرية ذات المذاق الذهني الذي يشده به المتلقي حيث تكتسب التركيبات اللغوية مذاقاً فكرياً له طعمه الفكري البكر،"³ فيدرك هذا المتلقي أن الغوص في أعماق اللغة الشعرية لمحمود درويش، يفرض عليه نتائج مسبقة تؤكد تميز الشاعر وتفرده ومعرفته التامة للوظيفة المنوطة بشعره لسان حال وطنه.

¹ - المرجع نفسه، ص. 8.

² - رجاء عيد، لغة لشعر قراءة في شعر عربي الحديث (الاسكندرية: منشأة المعارف، 1985)، ص. 182.

³ - المرجع نفسه، ص. 170.

لقد شعر درويش بمهمته السامية، فقد كان يرى أن على كل شاعر أن يستفيد من تميزه، ومن الحظ الذي آزره بمنحه حب الآخرين وتوحيهم له بالشاعر الرمز. ويقول في ذلك: "أما أن أسعى إلى أن أكون رمزا وأحرص على أن أكون رمزا، فأنا لا أريد ذلك أريد أن ينظر إلي من دون أن أحمل أعباء رمزية مبالغ فيها، ولكن يشرفني أن ينظر إلى صوتي الشخصي وكأنه أكثر من صوت، أو أن "أناي" الشعرية لا تمثل ذاتي فقط وإنما الذات الجماعية أيضا"¹ فقد أسعده هذا التشريف وهذا الحب من قبل الآخرين وتواصلهم مع شعره حتى وصفوا صاحبه بالشاعر الرمز.

كثيرا ما يعترف محمود درويش صراحة بتميزه بحظ جيد منحه حب الجميع واحترامهم. فحاول مبادلتهم هذا الاحترام وتقديم الشعر لهم كما يعتقد أنهم يريدونه وليس كما يريد هو فقد كان يحاول جاهدا ألا يحذف من شعره ما يشاء هو. فقد يحذف جزءا يعجب القارئ فيظلم بعدم التمتع به. لذا كان درويش يقف موقف المحقق من الشاعر الذي يقوم بذلك ويتساءل "لكن السؤال هو: هل رأيه هو الصواب أم لا؟ هناك رأي القارئ أيضا"² القارئ الذي يحترمه الشاعر لأنه كبر معه وتقبل كل ما طرأ على شعره من تغير بمرور الزمن. لقد تفهم محمود درويش بذكائه المفرط وحساسيته أهمية "أن يكون الشعر ابن عصره،... يخوض في قضايا العصر ويتفاعل معها، حيث لم يعد دور الشعر يقتصر على وصف الأحداث أو التعبير عن المشاعر والهموم الخاصة، لمجرد التنفيس عن النفس أو إحداث المتعة فيها"³ إنما الأمر أبعد من ذلك بكثير فيجب أن تكون للشعر رسالة إنسانية واجتماعية، وأن يكون قريبا من هموم الناس وقضاياهم المصيرية.

رابعاً، الشعر والإيديولوجية:

تجذر مفهوم الثورة والالتزام بها في خطاب محمود درويش الشعري فقد عاش الحالة الفلسطينية وعانى منها كثيرا في شعره تحديداً، لأن الشعر كان سلاحه

¹ - وازن، المرجع السابق، ص. 12.

² - المرجع نفسه، ص. 9.

³ - فتحيّة محمود، محمود درويش ومهموم الثورة في شعره، (الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1987)، ص. 140.

الأول والأخير. أطلق على الحالة الفلسطينية - حالته ومعاناته - اسم: حالة الاحتضار الطويلة، إذ مثل: الوطن سبب الإصابه بهذه الحالة، الحقيقة الكلية والهدف الأسمى. وطن أحبه درويش حين كان صغيراً متنسماً بنسيمه على الرغم من تدنيس الاحتلال لأرضه وأجوائه. إن "حس المكان بالمعنى الأول، أي المكان الفعلي، حس أصيل وعميق في الوجدان البشري، وخصوصاً إذا كان المكان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض... ويزداد هذا الحس شحذاً إذا ما تعرض المكان للفقد أو الضياع، وأكثر ما يشحذ هذا الحس هو الكتابة عن الوطن في المنفى،¹ أي عند الانسلاخ عن الوجود الفعلي في الوطن، فيتحول هذا الوجود الفعلي إلى حلم داخلي يجعل من الزمن أزمنة تاريخية وأسطورية.

وهنا يأتي دور الشاعر الفذ فيجمع هذه العناصر مشكلاً "بناء لغويا يكون بديلاً عن الانفصال الخارجي عن الوطن، ومن ثم لا يكون الانسحاب الاختياري، أو الاقتلاع البشري من المكان الذي يحدث في الواقع، موتاً لفكرة الوطن،... فالشعراء في المنفى يعيشون وطناً لغوياً بينونه في ديوان أو في قصيدة شعر،² يجرون عليها عملية إسقاط لمشاعر عميقة واغتراب لا يزيل قسوته إلا العودة إلى هذا الوطن. والأقصى من ذلك كله أن يعود الإنسان إلى الوطن/المكان أو إلى جزء منه فلا يجده! إنما يجد الاغتراب والانسحاب والحصار.

إن دوام مكابدة هذا الطواف في المنافي الفردية والكونية بحثاً عن التحام يرقى بالشاعر فينصره على الزمن والعدو والموت والاغتراب وهذا الاتحاد - الالتحام - يظهر في الشعر جلياً، وقد يوظفه بعض الشعراء في صورة الحب الجسدي أو أي تعبير آخر عن الحب، وهذا الاتحاد عند محمود درويش هو سر شعره، إلا أنه اتحاد من نوع آخر، إنه وحدة الشاعر والأم والحببية والأرض في نطاق واحد دون انفصال³ التحام أعاد تشكيل معادلة أيديولوجيا الشعر.

¹ - إعتدال عثمان. إضاءة النص. قراءات في شعر: أدونيس، محمود درويش، سعدي يوسف، (بيروت: دار الحداثة، 1988)، ص. 6.

² - السعافين، المرجع السابق، ص. 18.

³ - المرجع نفسه، ص. 7.

لقد حدد درويش موقفه من خلال شعره وانتهى إلى قول واحد عميق ومعجز، يقول شعر درويش: "أنا لا أكون إلا في الأرض، وكل وجود لي خارجها إنما هو ضياع وتيه نهائي، لتكن الأرض داخلي تكتبني وأكتبها."¹ درويش، إذن يسكن القصيدة ويشيد وطنًا من الشعر، يرسم حدوده على خطوط الطول والعرض الورقية، ويبسط أرضه، ويرفع سماءه، ويشكل تضاريسه... وتتجسد القصيدة - الأرض بقدسها وجليها وزيتونها وبرتقالها ودوالي العنب في قراها النائية. "بالفعل التزم محمود درويش بقضية شعبه العادلة، وحاول دوماً أن ينقل قضيته بواسطة شعره - قضيته التي أصبحت أعقد القضايا في حلقات الصراع الإنساني - الذي تمنى محمود وحاول جاهداً أن يقوم بدور إبرازها فنجح في ذلك بدرجة امتياز.

قد يكون السر البسيط في نجاح درويش هو مقدرته على عكس وجهة نظره العميقة في قضيته التي عبر عنها بصدق وإحساس عظيم. إنه مثال "للشاعر حين يرتبط بإحدى قضايا الإنسان ارتباطاً شعرياً حقيقياً. أي أن الارتباط لا يحدث بين الإنسان الذي في الشاعر، والقضية التي اختارها، وإنما بين الشاعر الذي في الإنسان والقضية التي استلهمها. لهذا تجيء عملية الارتباط شعرية في الأساس، لأنها علاقة حميمة بين الذات الشاعرة وإيديولوجية الشعر."² إنها حقاً علاقة من نوع فريد ارتقت بدرويش إلى الريادة في تفجير ثورة عارمة في الشعر العربي. أحدث درويش بموقفه الملتزم وكلمته الثورية التي وظفها بمثابة سلاح تمكن بواسطته أن يعيد لهذه الكلمة التي "طالما استعملت حتى أفرغت من معناها وفقدت قدرتها على التأثير من جديد، قدرتها على الفعل الثوري، على الهدم والبناء في آن واحد."³ وذلك لأنه على يقين: "أن الكلمات على حد تعبير بريس بارين مسدسات عامرة بقذائفها."⁴ فإذا تكلم

¹ - عثمان، المرجع السابق، ص. 115.

² - شكري غالي، شعرنا الحديث إلى أين؟ (القاهرة: دار الشروق، 1991)، ص. 179.

³ - محمود، المرجع السابق، ص. 110.

⁴ - Brice Parain, écrivain et philosophe français. (1897-1971) Il était obsédé par les problèmes de son temps. Il s'est intéressé principalement aux grands mouvements intellectuels et politiques du langage en ses essais plus Tardifs.

الكاتب فإنما يصوب قذائفه في مكتنه الصمت، ولكنه إذا اختار أن يصوب فيجب أن يكون له تصويب رجل يرى إلى أهداف محددة، ولا يلقي بكلماته بعشوائية.¹

لقد كان محمود درويش يعي وعيا تاما دور الإقناع، كما كان ماهرا في توجيه كلماته. فمن المعروف أن من أهم "الأهداف التي يرمي المرسل إلى تحقيقها من خلال خطابه إقناع المرسل إليه بما يراه... ولتحقيق هذا الهدف استراتيجية تداولية تعرف باستراتيجيه الإقناع، إذ تكتسب اسمها من هدف الخطاب"² وحين يكون الخطاب سياسيا وطنيا ملتزما تتحقق للمرسل أهدافه وتتم عملية الإقناع بكل سهولة ويسر. لقد خاطب محمود درويش الناس في بداياته مخاطبة مباشرة فرضتها ظروف ملحة وقام بذلك تلبية لنداءات داخلية وخارجية. فقال عن هذه الحقبة: "كانت ظروف الحياة تقتضي ربما مثل هذه المخاطبة المباشرة،"³ ولكنه وبعد أن يعترف بأن هذا ما شق الطريق أمامه، وأنه أصبح بعد النضج ينظر إلى الأمور نظرة مختلفة، وهذا يدفع إلى الحديث عن علاقة الشعر بالسياسة.

خامسا: القصيدة السياسية

سأل عبده وازن محمود درويش محاورا إياه: "ماذا باتت تعني لك القصيدة السياسية؟"⁴ أجاب قائلا: "القصيدة السياسية اليوم لا تعني لي أكثر من خطبة، قد تكون جميلة أو غير جميلة... القصيدة السياسية استنفذت أغراضها في رأيي، إلا في حالات الطوارئ الكبرى."⁵ قال محمود درويش مثل هذا الكلام لأنه شعر أنه حوَصر في نمطية معينة، وكان على علم بخبث بعض الآراء النقدية التي حاصرتها فقال: "الرأي النقدي يحاول أن يجرد الشاعر الفلسطيني من شعره ليبقيه معبرا عما يسمى مدونات القضية الفلسطينية."⁶ وافقه إحسان عباس هذا الرأي فقد رأى "أن

¹ - جان بول سارتر، ما الأدب؟ ترجمة: محمد غنيمي هلال، (القاهرة: دار النهضة مصر، د.ت)، ص ص. 23-24.

² - عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب. مقارنة لغوية تداولية، (بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004) ص. 444.

³ - وازن، المرجع السابق، ص. 9.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 10.

⁵ - المرجع نفسه.

⁶ - المرجع نفسه، ص. 11.

دراسة الاتجاه السياسي أو القومي من خلال الشعر يحول الشعر إلى وثيقة، أو هو أقل الوثائق في هذا المجال أهمية.¹ فالعنصر السياسي ليس العنصر الوحيد في القصيدة. وعلى الناقد الذي يبحث عن الاتجاه السياسي في العمل أن يستخلصه دون أحكام مسبقة، وأن يبلور الجانب الفني في العمل أيضا.

رصد محمود درويش الشعر الغربي ولاحظ أنه: مشبع بالجماليات، كما أن هؤلاء الشعراء حاولوا "أن يعودوا إلى ما هو مختلف، محاولين أن يجعلوا الشعر يمارس دورا سياسيا واجتماعيا، على خلافنا نحن فنحن خارجون من تراث شعري سياسي مباشر في محاولة لتطوير هذا الشعر ورفعته إلى مستوى جمالي أفضل".² كان محمود درويش على وعي تام بهذه الأبعاد كلها.

لذا كثيرا ما تساءل درويش: "ما هو الشعري وما هو غير الشعري، هذه مسألة أيضا. السياسة لا يمكنها أن تغيب تماما من هوامش القصيدة أو خلاياها لكن السؤال هو: كيف نعبر عن هذه السياسة؟... فالسياسة هي شكل من أشكال الصراع، صراع البقاء وصراع الحياة. ومن طبيعة الأمور أن تكون هناك سياسة".³ وهذا أمر أيده فيه النقاد المعاصرون ومن بينهم غالي شكري الذي قال: "إنني أؤمن إيمانا قاطعا بأن السياسة هي أحد العناصر المكونة للعمل الفني سواء كان ذلك بوعي من الفنان أو بغير وعي... أما الإيديولوجية الشعرية فلها شأن آخر لأنها تمثل ذروة الالتحام بين نفس الشاعر وما يقوله من شعر،⁴ هذه الذروة تعتبر الروح الشعرية التي يعبر عنها الشاعر بالكلمات.

إن الكلمة تستطيع أن توفر لنفسها قانونها الخاص. فهي "تدرك بوصفها كلمة وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى ولا كانبثاق للانفعال. وتتجلى في كون الكلمات وتركيبها ودلالاتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد أمارات مختلفة

¹ - إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ط2. (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 1992)، ص7.

² - وازن، المرجع السابق، ص11.

³ - المرجع نفسه، ص10.

⁴ - غالي، المرجع السابق، ص186.

عن الواقع،¹ إنها تتمتع بقيمة خاصة ووزن خاص أيضا يتيح للشاعرية أن تتجلى بأبهى صورها.

لقد عبر محمود درويش بصدق عن الدور الحقيقي للشعر والالتزام والإيديولوجية فالشعر لم يعد "ألفاظا ترصف رصفا لتؤلف قصيدة في موضوع تقليدي، بل أصبح عملا أدبيا جديرا بال العناية والاهتمام لما يتضح فيه من ذات الشاعر وذات أمته، ولما يرسمه أصحابه من ألوان الفكر والحس والشعور،"² وبالفعل كانت قصيدة درويش كل ذلك، إنها كانت تعذبه وتعتصر قلبه تماما كما كانت بلاده تعذبه، فكتب شعرا هو وريثه، كما كان هو وريث هذا الشعر، إلا أنه تركه مفتوحا بلا نهاية ليكمل الشعراء من بعده القصيدة في مثل هذه البطولة حاملين لواء إيديولوجية خطابه الشعري، أم متقمصين لنفس محمود درويش السياسي. هل سيكونون على نفس المستوى من الاقتناع بما عليهم فيقنعون به كما فعل محمود درويش الذي أقنع بشعره إقناعا تاما، ومجد به أمته ووطنه وحمل لواء قضيته وفرضها فرضا. وهذا يدفع إلى البحث في شعرية القصيدة.

سادسا، شعرية القصيدة:

إن قضية الشعرية أو جمالية الشعر من أهم القضايا المثيرة للجدل في الأوساط النقدية المعاصرة. فهل الكشف عن خصائص الإبداع الجمالي أمر سيظل موضع أخذ ورد؟ إلا أن هذا الأمر يستمد أهميته من كونه يربط بين جماليتي الإبداع والتلقي، أو بين شروط الإبداع الجمالي، وشروط التلقي الجمالي؟ تساؤلات عديدة قد نحاول التطرق إليها بمحاولة الولوج إلى فضاء الشعر من خلال رصد وتحليل بعض المفاهيم والقيم التي نأمل الكشف عن منطق اشتغالاتها، وطريقة تعابيرها الإبداعية، ووظائفها الجمالية، انطلاقا من رؤية إلى الشعر تقول: "إن الشعر هو العمق الروحي والنفسي للإنسان في تحولاته التاريخية والثقافية والاجتماعية، وهي رؤية لا تقفز على النظرية الأدبية، ولا تتسجج بها، لكنها تجعل من الشعر المعادل الموضوعي

1- رومان ياكيسون، قضايا الشعرية، ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988)، ص. 19.

2 - شوقي ضيف، دراسات في الشعر العربي المعاصر، ط7 (القاهرة: دار المعارف، دت.)، ص. 8.

للحياة.¹ وإذا انطلقنا من مفهوم جماليات لنقصي ملامح الفرادة والتميز والاستثناء والمغايرة التي اختص بها محمود درويش باحثين عنها في أعين الآخرين كيف درسوه؟ ماذا استثارهم في شعره؟ مستدرجين أحدهم لأننا بالطبع لن نستطيع حصرهم وآراءهم فيه لأنهم كثر، ولأن مساحات محيطات محمود درويش الشاسعة وفضاءاته الرحبة أعظم من أن تغطي بمقالات موجزة، فهي جديرة بمجلدات.

جمع الكاتب سعد البازعي في أحد مقالات كتابه: "أبواب القصيدة قراءات باتجاه

الشعر" جمع بين محمود درويش وامرئ القيس واليوت وربلكه² بدراسة جماليات العزلة عند كل منهم. فقد ارتأى البازعي أن التأمل في الجماليات يعني بالنسبة إليه "تأملًا في ماهية الشعر، فيما يغدو به الشعر شعراء، وما تغادر بقدرته الأشياء عاديتهما وألفتها لتكتسب الدهشة وتضيء... الجماليات هي الأسس التي بمقتضاها يكتسب الجميل جماله، والتأمل فيها قد يعني الغوص في تكوين الثقافة لاقتناص طبيعة تلك الأسس وكيفية تركيبها.³ أجرى الكاتب مقارناته حول العزلة عند الشعراء المذكورين أعلاه.

أعجب البازعي بمستوى درويش الجمالي المبتكر، وأشار إلى مباشرته في شعره المميز. ولكنه تساءل مستغرباً: من يستطيع التواصل مع شعر درويش الذي تميز بهذه "الوتيرة العالية من الإنشاد والتداخل المجازي والبدائل المدهشة؟ وهذه دون شك ملاحظة وجيهة، فلا بد من الإقرار بأن ثمة قارئاً من نوع معين تتوجه إليه هذه المتعاليات الشعرية، وتولد في قراءته بعض كوامن النص⁴ قارئ يتفهم درويش وأدائه الشعري الرفيع المستوى وهذا القارئ متوفر دائماً يبحث عن مثل هذا التفرد في الذات الشاعرة وتجربتها وانفتاحها على العالم .

¹ - محمد الحرز، شعرية الكتابة والجسد. دراسات حول الوعي الشعري والنقدي، (بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2005) ص. 9.

² - راينر- ماريا ريلكه: شاعر ألماني (1875-1926) كتب ما يقارب 400 قصيدة باللغة الفرنسية مباشرة. أحد الأصوات المبكرة والبالغة الأهمية في تطور الحداثة الشعرية في الغرب، وأكثرهم تعبيراً عن نوازع الإنسان وتناقضاته الداخلية.

www.geneno-kink.ch/slaibi/rilke%20poems%20choisis.htm.

³ - سعد البازعي، أبواب القصيدة قراءات باتجاه الشعر، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004)، ص. 17.

⁴ - المرجع نفسه، ص. 46.

ارتأى محمود درويش أن الشاعر بموهبته وخبرته يستطيع أن يحدد إيقاعات قصيدته وبنيتها وتطورها، وأن يتفاعل مع هذه التطورات، فاستجابت قصيدته لمجريات وتطورات الساحة الأدبية. لقد حول قصيدته "نفسها إلى إيقاع متناغم مع إيقاع القصيدة العربية في سياق تطورها التاريخي... بالارتقاء في لغتها التعبيرية إلى ما يدعوه نقادها بالانفتاح الترميزي على الشعرية الحديثة."¹ انفتاح ترك بصمته الواضحة على إنتاج محمود درويش أسلوبيا وبلاغيا وهيكلية، فطور لغته وأبعد عنها ظلال التكرار والإرهاق.

أما عن موسيقى كلماته وقافيتها فنتركه يقول فيها: "أنا ليس لدي سطر شعري، القصيدة لدي تتحرك كلها مثل كتلة دائرية، إنها تتدور. القافية عندي أخفيها في أول الجملة أو في وسطها. إذن، هناك طريقة إصغاء إلى اللغة، يجب أن تحرر الشاعر من الرتابة، وعلى الشاعر أن يعرف كيف يتمرد على الرتابة الموسيقية."² وهنا يأتي دور الشاعر الموهوب الذي يوظف خبرته وفنه ليرقى بقصيدته إلى مستوى القصيدة الجيدة الناجحة، نوافق درويش الرأي حول هذه النقطة وحول مسألة الشعر التي يصنفها الشاعر ضمن القضايا المستعصية فهو يقول فيها: "ليس من حل نهائي لمسألة الشعر. الشعر غامض ولا محدود، وتبلغ لا محدوديته حدا أننا لا نعرف إزاءه أي كتابة هي الأصح. الكتابة الصحيحة في رأيي هي أن نجرب، وأن نسعى إلى أن نخطئ لأننا من دون أن نرتكب أخطاء لا نستطيع أن نتطور لذلك أفضل دائما التجريب غير المضمون النتائج على تقليد مضمون النتائج،"³ فالشعر يجب أن يكون مغامرة كما رآه درويش، مغامرة إثر مغامرة تقضي من قصيدة ناجحة إلى أخرى أكثر نجاحا.

خاتمة

وأخيرا نذكر أننا حاولنا الغوص في أعماق محمود درويش واستخلاص بعض النتائج من مسيرته الرائعة وتجربته الشعرية وشعره الخالد الذي لن يغيب

¹ - الحرز، المرجع السابق، ص. 101.

² - وازن، المرجع السابق، ص. 17.

³ - المرجع نفسه، ص. 18.

بغيا به، ولن ينسى مهما تلاه من شعراء ومواهب لأنه جسد فكرا وإيديولوجية ووطنا ورقيا ورمزا.

لقد عاش محمود درويش أوقاتا عصيبة على جميع الأصعدة، خاصة وأن شعره كان تعبيراً عن ذات تكتب حياتها تحت وطأة صراع حاد ضد العالم والتاريخ والزمن أيضاً. لم يمنعه هذا كله من كتابة القصيدة المميزة، وتقديم آراء نظرية في فلسفة الشعر وكتابته عبر مقالاته النثرية العديدة وحواراته الصحفية المختلفة، ويعتبر الحوار الذي أجراه معه عبده وازن أهم حوار يلخص أفكاره في الشعر والوطن والسياسة والإنسان.

لقد جند محمود درويش عقله وقلمه وإحساسه لتحقيق المهمة التي أوكل نفسه بها. لقد كان صادقا في وصف جزئيات ودقائق لا يمكن أن يبوح بها غيره من الشعراء، فاعترف بسر رائع حين قدم لنا مفتاح أدواته: **الإيقاع** الذي وصفه بالحافز الشعري. كان درويش متمردا دائم البحث عن قصيدة خارقة لزمانها التاريخي، معبرة عن حبه الشديد لوطنه. لقد أعاد محمود درويش تشكيل معادلة إيديولوجية الشعر، لأنه كان على وعي تام باستراتيجية الإقناع وبأهمية السياسة. ومنه يمكن أن نستخلص ما يشبه نظرية في الشعرية والكتابة والوطنية عنوانها: **"محمود درويش"** الذي لن تكفيه صفحات قليلة، بل سيبقى متجددا تجدد القراء والشارحين.

قائمة المراجع

- 1- البازعي، سعد. أبواب القصيدة، قراءات باتجاه الشعر. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2004.
- 2 - البناء، حسن عز الدين. الشعرية والثقافة، مفهوم الوعي الكتابي وملاحظته في الشعر العربي القديم . الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي. ط1. 2003.
- 3- الحرز، محمد. شعرية الكتابة والجسد. دراسات حول الوعي الشعري والنقدي. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، 2005.
- 4- رجاء، عيد. فلسفة الالتزام في النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق. الإسكندرية. منشأة المعارف. 1986.
- 5- رجاء، عيد. لغة الشعر قراءه في الشعر العربي الحديث. الإسكندرية منشأة المعارف، 1985.
- 6- سارتر، جان بول. ما الأدب؟ ترجمة: محمد غنيمي هلال. القاهرة: دار النهضة، دت .
- 7- السعافين، إبراهيم. إحسان عباس ناقد بلا صفاق. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2002.
- 8- الشهري، عبد الهادي بن ظافر. استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية . بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.
- 9- عباس، إحسان. اتجاهات الشعر العربي المعاصر. عمان. دار الشروق للنشر والتوزيع . ط2. 1992.
- 10- عثمان، اعتدال. إضاءة النص قراءات في شعر أدونيس محمود درويش سعدي يوسف عبد الوهاب البياتي أمل دنقل محمد عفيفي مطر أحمد عبد المعطي حجازي. بيروت: دار الحداثة، 1988.
- 11 - ضيف، شوقي. دراسات في الشعر العربي المعاصر، ط7، القاهرة: دار المعارف، دت.
- 12- غالي، شكري. شعرنا الحديث إلى أين؟ القاهرة. دار الشروق. 1991.
- 13 - القيرواني، أبو علي الحسن بن رشيق. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق: عبد الحميد الهنداوي. الجزء الأول. بيروت: المكتبة العصرية. 2001.
- 14- محمود، فتحية. محمود درويش ومفهوم الثورة في شعره. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة. 1987.
- 15- وازن، عبده. حوار: "محمود درويش: ولدت على دفعات". مجلة الكرمل، العدد: 86. شتاء 2006.
- 16- ياكسون، رومان. قضايا الشعرية. ترجمة: محمد الولي ومبارك حنون. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 1988.